أعياد

قصة بقلم
عبد الله نيازي

لم تكن احاسيسه التي كانت تمور في اعماقه في تلك اللحظة لتختلف عما يشعر به في كل يوم .. فقد كان دائم الاحساس أن شيئاً في اعماقه يتلوى ويعذبه بقسوة وباستمرار .. كان يحس كما لو أن نداء غامضاً مجهولا يدعوه بالحاح الى عمل شيء .. الى القيام بامور تحقق آدميته وتبرهن على أنه أنسان يحس ويفكر ويتألم ويعمل ، لامجرد آلة تدور بوحي وتتوقف بوحي .. وكان يحس بايد خفيفة تحيطها هالة من نور تومئ له من بعيد ، تشده اليها وتجتذبه باصرار وعنف ، تجتذبه اليها لكي تدفع به الى عمل كبير كبير ، ليس من السهل أن يدرك جسامته ..

كان يحس بكل ذلك في كل لحظة من لحظات حياته ، ولكنه ما كان يدري أي شيء يفعل لكي يلبي ذلك النداء الغامض ويكون وسط تلك الأيدي الوضاءة. كان يشعر انه مقيد بالف قيد ، وان كل شيء يقف ضده ويمنعه عن الحركة ويحول بينه وبين مايريد.. فيتعذب ويشقى. ثم يمضي في احتقار ذاته ، ذاته التي ما انفكت تدفعه كاقوى ما يكون الدفع . وتقرب له ذلك الهمس القوي وتجسم له تلك الأيدي البعيدة ثم لا تدعه يفعل شيئاً .. ولكم ود لو انه استطاع ان يخمد كل احساس فيه ، كل نبضة حياة اذا هو ظل في موقفه الجامد ذاك لايتقدم ولا يعمل ولا يحاول ان يحرر ذاته من كل ما يقلقها من ضعف وجمود ..

لم تكن احاسيسه في تلك اللحظة لتختلف عما يشعر به في كل يوم . ولكنه كان يحس ان شيئاً يعتصر نفسه بوحشية ويطوح بكل تلك المثل الرائعة التي يحيا لأجلها. وكاد يحتقر نفسه ثانية. يحتقرها كأعنف ما يكون الاحتقار..

انه ما زال في مكانه لم يبرحه.. لم يقم بشيء ، ولم يأت بغير ماتأتيه الآلة من حركة هي رمز الرتابة والجمود .. وعما قليل ستقبل عليه زوجته بزينتها وعطرها وفي يمناها طفلتها تقول له والبشر يطفح على وجهها والبهجة تملأ كيانها كله .... لتقول له .. لتقول له ..

وتحطم القدح الذي كان بين يديه .. ولم يرد بحرف على تساؤل زوجته التي أقبلت جزعة .. انما ادار لها ظهره ليحجب عنها وجهاً يقطر الماً وحشياً قاسياً ، وليخفي عنها دمعة كادت تنبجس من عينيه . وقام وهو لايدري أي شيء يصنع ، واية اكذوبة يزورها في نفسه لكي يبرر لها عمله ذاك ، وفتح المذياع ثم اغلقه .. لم يعد يبهجه شيء ، لم يعد تجتذبه تلك البهجة التي تغمر كيان زوجه كله . ولا تلك البراءة التي تنبعث من طفلته .. ولا تلك الزقزقة التي تذيعها العصافير لتعلن عن ميلاد فجر يوم جديد ، فجر يوم عظيم . ينشدون فيه ويغنون ويهنيء بعضهم بعضا .. لا كان ذلك اليوم اذا كان لايوحي بغير ذلك الألم العظيم .. ولا كانت تلك البهجة اذا كانت لا تخفي غير النجيع ...

وراح يدور في الغرفة واعماقه تخزه وخزات اليمة ، وقلبه يدق ويدق ، ونظراته لا تستقر على شيء ..

– هل اجيئك بقدح من الماء ؟..

انها ما زالت واقفة .. يالها من ساذجة ! ساذجة الى حد مؤلم .. وبعنف ضغط على شفتيه ليحبس صرخة كادت تجتاح اعماقه كلها وتستقر في وجه زوجته .. ضغط على شفتيه بعنف ، واولاها ظهره ، وبجهد طلب اليها أن تغادره وتتركه وحيداً ...

– ولكن .. مابك ؟ .. انك لم تبد هكذا ابداً ؟ ..

– لاشيء . واتوسل اليك أن تدعيني وحيداً ..

– اذا كنت تخلق الأزمات لكي لاتشارك الناس سرورهم ...

– هلا ذهبت ؟ ؟ ...

– واخلع ملابسي ؟ .. واقعد ..

– هل تفهمين احاسيس انسان تقول له باصرار وعناء.. انه حقير حقير! ؟

– ماذا تقول ؟ ..

وراح ينظر اليها والألم يعصر وجهه .. ماذا تستطيع ان تفهم هذه التي لا يهمها غير زينتها وما تناله من خلع وابتسامات هي كل ما تطرب له في هذه الحياة .. وفتح المذياع ثانية علّه يجد فيه ما يخفف عنه هذه الأنفعالات القاسية ، ولكن لم ينبعث منه غير السخف وغير اغان مبتذلة لا تصلح حتى للأناس البسطاء في ايامهم العادية ..

وجلس وقد غادرته زوجته والعبوس يعفر وجهها كله .. انها لم تفهم شيئاً ، ولم تدرك ماذا حل بزوجها في هذا اليوم الذي يبتهج فيه الناس .. انها لم تره على هذا النحو ابداً .. اجل كانت تجده احياناً غارقاً في صمت عميق هو صمت من يصاب بكارثة على حين غرة ، ولكنها لم تجد وجهه يتخذ مثل هذه القسمات الفظيعة ، ولا تصرفاته مثل هذا العنف ، ولا هذه القسوة التي كاد ان يجابهها بها .. وما كان بامكانه هو ان يقفها على حقيقة شعوره .. فهو يعلم انه اذا ما فعل ذلك ، فانما قد لا تفهم ، فهي ساذجة سذاجة مؤلمة .. وماذا يقول لها ؟ ؟ . . انها لا تستطيب غير الأحاديث التي تدور عن الملابس وغيرها من الأحاديث السخيفة ، بل انها لا تفهم غيرها ، وليس له اعتراض على ذلك ، فهي قد نشأت هكذا كسواها من فتيات هذه البلاد ..

ولمعت في رأسه صور رائعة ومواقف مشرفة لفتيات هن في عمر الورود، فتيات استطعن ان يتحسن وجودهن ويحققن ذواتهن ، ويبعثن من جديد .. وشعر بومض يلتمع في اعماقه ، ويزهو كاد يملأ وجوده ، ولكن للحظة فقط، للحظة واحدة ، اذ سرعان ما عادت الكآبة تغلفه من جديد ، والألم يعصر نفسه ووجهه بقسوة وضراوة .. انهن قلة ، قلة . جد ضئيلة . وتكاد تضيع وسط هذا الظلام العابس والموت الحسي الذي يكاد يلازم كل فتاة .. انهن كثيرات ، كثيرات جداً ، اولئك اللاتي يحتجن الى بعث من جديد .. الى بعث حقيقي يبدأ من الجذور .. ولكن كيف ؟ ..

واختلفت في رأسه الصور ، والمذياع يملأ الغرفة بذلك الهذر الذي لايدري كيف يسيغه البعض، ولا يستطيع ان يتصور كيف يذيعه اناس يقال عنهم انهم مسؤولون .. بل ان الحيرة اخذت تهزه بعنف ولم يعد يدري كيف يستطيع انسان ان يغفل عن كل ما يحيط به ويذهب مهنئاً الناس بايام سعيدة ؟ .. كيف تكون الأيام سعيدة ودماء اخوانه تراق على ايد دنيئة لا تعرف الكرامة ، طاغية لا تعرف الرحمة .. وارضهم ، ارض اخوته العزيزة ، ارضهم الطيبة ، ارضهم التي ولدوا فيها وترعرعوا .. يتناهبها باغ اليم .. كيف يستطيع أنسان أن يفعل كل هذا ويذهب ليشارك الناس فرحهم وسرورهم وكأن شيئاً لم يحدث ؟ ؟ ..

اهو انسان اذن ؟ .. وما هي السمات التي تدل على انه كذلك ؟ .. كرمه

الذي ليس له حد ؟ .. عدم شعوره بمسؤلية ما يحدث ؟ .. انعزالية ؟ .. انانية ؟ .. تكالبه على كل براق تافه ؟ .. اي شيء ؟ .. انه ايضاً بحاجة الى يقظة، الى صحو يمزق استار الظلام، الى وعي صادق، ثم بعث يبدأ من الجذور.

ورفع يده فجأة الى ذقنه التي لم تحلق منذ بضعة ايام .. فهو منذ ان وجد ان العيد قد اوشك ان يحل ، وانه سيدوس مرغماً على كل احاسيسه وشعوره لكي يظهر للناس وجهاً غير الذي يحمله ، ويقول لهم اشياء لا يحسها ويدرك فخامة زيفها .. اهمل كل شيء يتعلق به .. حتى ذقنه اهملها.. لم يجد في نفسه رغبة تدفعه الى عمل شيء ...

وانبعث في تلك اللحظة نغم عذب متدفق تردده حنجرة قوية صافية.. فراح ينصت ونشوة رقيقة تتغلغل في نفسه شيئاً فشيئاً ، وبسمة حزينة ترتسم على شفتيه .. انه يحب هذا النغم . ويحب هذه الأغنية ، ويحب اغاني اخرى لهذا الفنان الكبير كثيراً ما كان يستمع اليها بنشوة بالغة وهدوء رائق .. وهزه دوي يردد « نحن شعب عربي واحد ضمنا في حومة البعث طريق » فشعر بوجوده كله يرتجف وشعره يقف ، ونشوة عميقة تتمشى في كيانه كله .. فاتكأ قليلا ثم نادى زوجه ، فاقبلت مسرعة وبسمة باهتة تموت على شفتيها .. فرفع يده الى ذقنه يتحسسها ثم قال مداعباً وخيوط من الحزن مازالت ترسم على محياه ذلك الألم القاسي ..

– خمني .. أي شيء اريد .. ؟

فقالت وهي توسع من ابتسامتها :

– ادوات الحلاقة .. اليس كذلك ؟ ..

– ولكن ، اتدرين لماذا ؟ ...

– لتحلق ! .. هل انا غبية الى هذا الحد ؟ ..

– معاذ الله .. ثم ماذا ؟ ..

– ما يدريني ..

– ارأيت ! .. ونذهب...

– الى اين ؟ ..

– الى اين .. لم اذن تجملت على هذا النحو ؟ ..

– الم تعدني امس اننا سوف نذهب ونحتفل بالعيد ..

– اجل ، هذا ما قلته تماماً ، وما انا بناكث ما وعدت ..

سأحلق منذ اللحظة .. وارتدي ملابسي ، وانزين ، واتعطر .. ثم اضع يدك في يدي ونذهب معاً لنقول لكل من نعرفه ..« اهنئك بالعيد السعيد ، لتكن ايامك كلها اعياداً» . اوما شاكل ذلك .. وهناك .. هناك في المغرب العربي وفي فلسطين باغ يستأسد ، ودماء تراق ، وارض تسلب ، وجياع تبحث عن كل شيء ، وموتى تنتظر من يواريها التراب ..

– ولكن ، مانحن والمغرب العربي ؟ .. ثم اننا في العراق ..

– اجل ، ما نحن والمغرب العربي ، تلك هي النقطة الحساسة في القضية ، ذلك هو السؤال الذي يردده ميتو الشعور والأحساس .. يموت لنا عزيز ، فنعلن الحداد ، ولا نقبل تهنئة او شبه تهنئة ، ولا نشارك الناس افراحهم ، والآف تشرد ، ودماء تجري كالأنهر ، لا تحرك فينا وتراً .. اي شيء نحن ؟! ما دام الأمر لايخص شخصي بالذات ولا يتعلق بي ، فانا لااحسه ، ولا اشعر به ، ولا آبه له .. لتتطاير اشلاء الضحايا .. لتسل الدماء .. ليفن العالم كله .. ان ذلك لايعنيني ما دمت حياً لم يمسني اذى .. ان وعينا القومي زئير بعثنا العميق لهو اعنف من ان يعوقه مثل هذا النعيب ، يازوجتي العزيزة ..

– بت لاافهم .. ماذا تقول ؟ .. مابك ! ..

– لاتفهمي ! .. وقد تظلين كذلك حتى يوافيك الأجل .. ولكن هذه التي بين احضانك ستفهم ، سأعلمها انا ، انا الأب ، ولست وحدي الذي سيعلم اولاده حقيقة وجودهم .. انهم كثيرون اولئك الذين يتمشى فيهم روح البعث الجديد ..

وغابت عنه زوجه وهي لاتدري ، اتحضر له ادوات الحلاقة .. أم لاتحضر ؟..

بغداد — **عبدالله نيازي**

منشورات

دار النشر والتوزيع التعريبات

الدار الوطنية للنشر والتوزيع في الاردن

ص . ب . ٦١٢ – تلفون ١٣٦١

عمان – الاردن

		فلساً
١ – عشيات وادي اليابس	للشاعر مصطفى وهبي التل	٢٥٠
٢ – هذه تونس المجاهدة	لعمر البنبلي التونسي	١٥٠
٣ – مع الناس	لمحمود سيف الدين الإيراني	١٢٠
٤ – الحركة النقابية في الأردن	لخريس والصفدي	١٢٠
٥ – البرامكة في التاريخ	لعبد الحليم عباس	٢٠٠
٦ – كنت في مراكش	لماجد غنما	١٢٠
٧ – الياس فرحات شاعر العروبة في المهجر (دراسة تحليلية لأدب الشاعر المهجري الكبير وحياته كتبها الاستاذ عيسى الناعوري)		١٢٠

تحت الطبع

١ – على طريق الزمان – اول قصة اردنية طويلة	بقلم الاستاذ شكري شعشاعه
٢ – اضواء على شعر البادية الأردنية – دراسة تحليلية للشعر البدوي في الأردن واثره في شعر ايليا ابي ماضي	بقلم روكس العزيزي
٣ – صورة دوريان غراي ترجمة جديدة مصورة	بقلم الاستاذ بشير الشريقي

يصدر قريباً

١ – الحرب العالمية الثانية	سلسلة مصورة
٢ – جرمينال – لإميل زولا	ترجمة الاستاذ محمود سيف الدين الإيراني
٣ – الأدغال – لأبون سينكلير	ترجمة الاستاذ سليمان موسى
٤ – عربة طريق اسمها اللذة	مسرحية مترجمة لتينيسي وليمز